

كيفية فهم السنة والتعامل معها قديمًا وحديثًا

الشيخ محمد الغزالي

هذه كلمة طيبة علّق بها فضيلة الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله تعالى- تعقيبًا على بحث لفضيلة الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي - نفع الله به - وكان البحث بعنوان «كيفية فهم السنة والتعامل معها قديمًا وحديثًا» قدمه إلى ندوة (السنة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة) المنعقدة في عمان بالمملكة الأردنية الهاشمية في الفترة ١٥ من ذي القعدة إلى ١٩من ذي القعدة ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩/٦ - ٢٣ /٦/ ١٩٨٩م التى عقدت بالتعاون بين مؤسسة آل البيت (مآب) بالأردن والمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن.

ولقد رأت إدارة المجلة أن تنشر هذه الكلمة بمناسبة مرور عامين على رحيل الشيخ الغزالي ، وفاء ببعض حقه وذكرى للذاكرين ، وحفظاً لها حيث لم تنشر من قبل .

ولقد حرصنا على أن ننشرها بخطه كما هي كمستند ، عسى الله أن ينفع بها كما نفع بصاحبها .

التحرير



محمد صاحب الرسالة الخاتمة أحب البشر إلينا وأجلّهم نعمة لدينا! وإذا حسبت أقدار الناس وعدّ جهادهم للإصلاح المحو، وإبطال الباطل فمحمد أصدقهم قيلا وأهداهم سبيلا وأقدرهم بالخلق الجليل والصبر الطويل على إبراز الحقيقة وحمايتها وتفتيح الجفون المغلقة على سناها...

لقد أنصف الوحي الإلهي كله، وصانه مما عراه خلال القرون الأولى، وعرّفنا بالله الأحد الصمد، وخطّ لنا سبيل رضاه في وجه سلطات شرسة وكهانات خرفة وجبابرة تتوارث الخبال، ولم يزل يصابر الليالي ويكافح الطغاة حتى بلغ رسالة الهدى والخير، فله في أعناقنا صنائع المعروف لا ننساها له أبدا، وإن جهل الجاهلون وجحد الجاحدون...

إن نبوة محمد تلقى في هذا العصر تحديا نلقاه بالازدراء، تشارك فيه الصهيونية والصليبية والشيوعية، يحاولن جميعا غمط حقه وبخس تراثه! ولكننا ننظر إلى ما تقدّم هذه النحل للدنيا من عوج وشر وما يقدّمه محمد للدنيا في كتابه وسنته من استقامة وخير، ونعلم أن المستقبل لنا، وأن يوم الإسلام قادم «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»، والمهم أن نعرف رسالتنا بصدق، وأن نطبقها على أنفسنا بوفاء، وأن نبلغها إلى الناس سماوية لا يعلوها غبار أكدار الأرض فذي ينفر منها أصحاب الفطر السليمة...

نحن نعلم أن الأنبياء كلهم مبلغون عن الله، ولا نعجب عندما نقرأ قوله تعالى: «من يطع الرسول فقد أطاع الله...» وقوله: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم...» فللرسول علينا حق السمع والطاعة، ونحن ندرس سيرته لنترسم خطاه ونقتفي أثره ونقتدي به فيما فعل وترك، ولا خلاف بين المسلمين في أن محمدا أسوة من الحسنة وإمام من الأول والصورة العملية الوسيطة لما في القرآن الكريم من هدى ونور. وعندما نقرر مصادر الأحكام فالإجماع منعقد على أن الأصلين الأولين هما الكتاب والسنة... والكتاب لا ترقى إليه شبهة فهو متواتر حرفا حرفا، ونحن نؤمن به جملة وتفصيلا... وما بلغ من السنة درجة اليقين فسبيله سبيل القرآن الكريم لا يزيغ عنه إلا هالك! ومن علم على وجه اليقين أن رسول الله أصدر أمرا ثم قرر رفضه فقد انسلخ عن الملة، لا خلاف في هذا، وإذا وقع لغط حول حديث ما فمداره: هل قال الرسول هذا؟ أم لم يقله؟.. فالكلام في صحة النسبة وفي ضمانات هذه الصحة لا في جواز التقدم بين يدي الله ورسوله، أو أخذ ما يجب وترك ما لا يجب..!!

وقد قرأت البحث الذي كتبه الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي في أسلوب التعامل مع السنة فوجدته أوفى على الغاية وجمع أنفس ما يقال في هذه القضية، والحق أن الشيخ يوسف من العلماء الذين يظهرون قليلا في تاريخنا ولهم رسوخ في الفقه والأثر، وبصر بالنص الإلهي وواقع الحياة، بل هو في ميدانه إمام من الثقات العدول، والدعاة الأمناء...

وأنا أطمع في أن أضيف إلى جريده أشياء ليست استدراكا عليه، وإنما هي إضافات توضح مواقف جمهرة المسلمين من السنة الشريفة، عندما يتركون حديثا من الأحاديث لملحظ آخر من ملاحظ الشريعة رأوه أجدر بالترجيح.. وقبل أن أشرح ما عندي أحب أن أقول: إنني مع الجماعة الكبرى أستظل بلوائها وأنتظم في صفوفها وأكره الشذوذ وأرفض الخروج على ما ارتضاه جمهور الأمة.. إنني أعرف العلاقات الرهيبة التي تواجهها أمتنا في هذه السنوات العجاف، وأريد أن تبقى جبهتنا موحدة لصون بيضتنا وكبت عدونا

لقد تخرجت في الأزهر من نصف قرن، ومكثت في الدراسة بضع عشرة سنة لم أعرف خلالها إلا أن حديث الآحاد يفيد الظن العلمي، وأنه دليل على الحكم الشرعي ما لم يكن هناك دليل أقوى منه، والدليل الأقوى قد يؤخذ من دلالات القرآن القريبة والبعيدة، أو من السنة المتواترة، أو من عمل أهل المدينة...

والقول بأن حديث الآحاد يفيد اليقين كما يفيده المتواتر ضرب من المجازفة المرفوضة عقلاً ونقلاً ومن هنا فقد ألفنا قبول أحكام شتى تخالف المتبادر من بعض الروايات الصحيحة. كنت وأنا أدرس الفقه على المذهب الحنفي أسمع المالكيين يقولون: من أفطر في رمضان ناسيا فعليه القضاء، أو يقولون: الشك ينقض الوضوء، وهذا يخالف أحكاما مقررة عندنا تعتمد على أحاديث صحيحة. وكنا لا نقرأ أحرفا وراء الإمام في الصلوات الخمس، أو نترك البسملة أحيانا لما استقر عندنا من مرويات على حين كان الشافعيون يصرون على تلاوة الفاتحة ويرون البسملة جزءا منها، ولم نكن نشعر بغضاضة من هذا الاختلاف، وإذا ثار جدل علمي ركد بعد قليل غير مخلف غضبا ولا أسفا... وفي المذهب الحنفي يعرّف الفرض بأنه ما ثبت بدليل قطعي، أما الواجب – وهو دون الفرض – فما ثبت بدليل ظني، ويعني ذلك أن حديث الآحاد لا يثبت به فرض، كما أنه لا يقع به تحريم، بل يفيد الكراهية وحسب...

وعندما توغلنا في دراسة القرآن الكريم وجدنا المفسرين المحققين يجنحون إلى ذلك المنهج. يقول صاحب المنار: "التفرقة بين ما ثبت بنص القرآن من الأحكام، وما ثبت بروايات الآحاد وأقيسة الفقهاء ضرورية، فإن من يجحد ما جاء في القرآن الكريم يحكم بكفره، ومن يجحد غيره ينظر في عذره! فما من إمام مجتهد إلا وقد قال أقوالا مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة لأسباب يعذر بها، وتبعه الناس على ذلك، ولا يعد أحد ذلك عليهم خروجا من الدين حتى من لا عذر له في التقليد..." ثم نقل صاحب المنار عن ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين قوله: "الربا نوعان جلي وخفي، فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حرم لأنه ذريعة إلى الجلي..."

ويرى ابن القيم أن ربا الفضل المعروف في حديث الأصناف الستة إنما حرم من باب سد الذرائع والواقع أن ربا الفضل لا يكاد يوجد في الحياة العملية! فما معنى أن تبيع جراما من ذهب بجرام من ذهب مثلا، أو دينارا بدينار؟ المقصود إغلاق الباب من بعيد على ربا النسيئة... والمهم أن الحديث المتفق عليه في تحريم التفاضل والإرجاء بين الأصناف الستة لا يفهم إلا في ضوء بيان ابن القيم..

إن العقائد والأركان والمعالم الرئيسة لديننا تؤخذ مما نقل بالتواتر، أو مما استفاضت شهرته من الصحاح أما الأحكام الفرعية فلا بأس عند تقريرها من النظر في أحاديث الآحاد، وقد بذل علماؤنا جهدا مقدورا مشكورا في ضبطها، إنهم لم يهدروا نقل عدل ضابط، بل أعطوه ما يستحقه من اهتمام بيد أننا في ميدان الشهادة لا نحمي دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بشهادة رجل واحد مهما كانت عدالته، إننا نطلب شاهدين أو أربعا في الإثبات، ودين الله أهم من دنيا الناس!

ذلك، وهناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها، وقد شعرت بالغيظ والحرج وأنا أقرأ أن يهوديا وغدا سحر النبي عليه الصلاة والسلام وأعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدرها ابن حجر ستة شهور! أكذلك ينال القمم؟ قالوا: كما يستطيع سفيه أن يحذفه بحجر أو كما يستطيع مجرم أن يصيبه بجرح! وهذا اعتذار مرفوض، فإن السحر تسلط على الإرادة والفكر وهذا مستحيل على الأنبياء والوسيلة تسليط أرواح شريرة، أو بعض الجن.. على الجهاز العصبي للإنسان، فيؤدي إلى اضطراب وحيرة...

وقد سرني أن الشيخ محمد عبده رفض هذا الحديث، وساءني أن الرجل الضخم هوجم في دينه لمثل هذا الموقف الغيور! وسمعت أحد علماء الجمعية الشرعية عندنا يقول: إن في سند الحديث مقالاً، فقلت له لست من علماء هذا الفن، وكل ما لاحظته على السند أنه يجعل نزول المعوذتين في المدينة، وهما عند علماء القرآن وكتاب المصاحف نزلتا بمكة، وما دمنا في الحديث عن الأسانيد فلأنقل هنا كلاماً جديراً بالنظر من مجموعة "الحديث الصديقية" التي احتوت على مصنفات لثلاثة من أسرة الغماري المغربية المشتغلة بعلوم الحديث.. قال الكاتب - وهو يدافع عن الحارث الأعور - إن الحارث راوٍ ثقة وعالم صدوق وما نقموا منه إلا حبه المفرط لعلي بن أبي طالب، فقد كان يفضله على الأصحاب جميعاً! وقد تقرب الأعمش بلحمه إلى بني أمية، وافترى عليه الكذب.. الخ

والخطب إلى هنا محتمل! لكن الكاتب يقول بعد ذلك: "لقد احتجوا بأحاديث من لم يبلغ العشر من درجة الحارث، بل صحح الشيخان وغيرهما - أحاديث - لقوم رموا بالكذب واعترفوا بالوضع"

هنا أحسست الخطر وتنبهت لما يقال! كيف؟ ومن؟ وأجاب الكاتب: "أول هؤلاء إسماعيل بن عبد الله بن أويس أبو عبد الله بن أبي أويس روى له (خ، م، د، ت، ق) قال يحيى بن معين في رواية: ابن أبي أويس وأبوه يسرقان الحديث! وقال في أخرى: مخلط يكذب! وقال النضر بن سلمة المروزي: ابن أبي أويس كذاب... وقال سيف بن محمد: ابن أبي أويس كان يضع الحديث... الخ" [قال الكاتب فضارباً أمثلة أخرى لرواة احتج بهم في الصحيح: "ومنهم حريز بن عثمان، وقال [illegible] لا دين له كان يلعن علي بن أبي طالب كل يوم سبعين مرة، فهل هذا عدل؟ ربما قيل: أخرجوا حديثه في الصحيح لأنه تاب ثم أنصف علياً ونقول: إن ما ذكره عنه ابن حبان يرد هذا الزعم... وقد ثبت كذبه في الرواية وتحريفه للأحاديث الصحاح.. [ومنهم أسيد بن زيد الجمال روى له البخاري. وقد قال عنه النسائي متروك! وقال عنه ابن حبان: يروي المناكير عن الثقات!] [ومنهم أحمد بن بشير الكوفي روى له البخاري، قال الدارمي متروك] [ثم قال الكاتب: ومن طعن فيه بالنكارة، ورواية المناكير وبالوهم والغلط في الرواية والغلو في النصب وعداوة آل البيت كثير جداً فيما يسمى بالصحيح..." إنني لست من علماء الجرح والتعديل حتى أعرف قيمة هذا النقد، وأضعه بين أيديكم ليدلوا فيه برأيهم.. ولكنني أعترف بأني أطيل النظر في كتب السنة معتقداً أن بها كنوزاً ثمينة من تراث النبوة وأعتمد على فطرتي في قبول الصحيح واستبعاد الضعيف، وهي فطرة صقلتها التلاوة الدائمة لكتاب الله، والحب الصادق لصاحب هذا الوحي المبارك.

قد تقول: هذا أسلوب عاطفي لا يعول عليه، وأجيب أني أضم إليه نظر الفقهاء من أئمتنا في المتون المروية إذ كنت قليل البضاعة في علم الرجال، ومن هنا استغربت من أحاديث تركها أبو حنيفة ومالك، ورواها المشتغلون بجمع الأحاديث في المسانيد أو في غيرها..

إن قلة الفقه سمحت بتسجيل أحاديث تسيء إلى الإسلام، وقد تجاوزها الأئمة بأدب ولطف

وأمامي الآن شرح الشيخ محمد رشيد رضا لقوله تعالى "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" إنه يقول: لم نر في الأحاديث الصحيحة ما هو أقرب إلى كلام الصوفية منه إلى كلام الله عز وجل إلا حديث "من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب"

وقد انفرد به البخاري وفي سنده غرابة لمتنه! قال الحافظ ابن رجب: هذا الحديث تفرد

بإخراجه البخاري دون بقية أصحاب الكتب ... إلى أن قال: وهو من غرائب الصحيح، تفرد به ابن كرامة عن خالد بن مخلد، وليس في مسند أحمد، مع أن خالدا هذا تكلم فيه الإمام أحمد وغيره وقالوا: له مناكير ثم قال: وقد روي من وجوه أخرى لا تخلو كلها من مقال! وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناكير وفي الميزان للذهبي: يكتب حديثه ولا يحتج به!... الخ [قال الشيخ رشيد: وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى - والحديث قدسي - "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به..." الخ الذي استدلوا به على الحلول والاتحاد وقد أوله العلماء، وبينت أمثل تأويل له عند الكلام على حب الله تعالى...

والإنصاف يقضي علي بأن أؤكد مكانة صحيح البخاري فهو بلا ريب أدق كتب السنة، ومن الإنصاف كذلك توكيد احتواء كتب السنة على آلاف الأحاديث المقبولة، بذل الأسلاف في تدوينها جهودا مضنية، ولا تتم الإفادة منها إلا بتعاون الفقهاء والمحدثين جميعا على ضبط معانيها وتفاريعها. والمأساة التي نعاني منها، ونخشى بلاءها على الصحوة الإسلامية تجيء من قبل قوم يسمون أنفسهم "الإخوة أهل الحديث" نلحظ عليهم عيوبا ثلاثة: اكتراثهم بالمرويات الواهية، وبناء العلالي فوقها، ثم سوء فهمهم للصحاح وتعصبهم لما يفهمونه منها من أخطاء، ثم عجزهم عن إدراك الحكمة القرآنية، ووقوفهم بعيدا عن محاور القرآن وغاياته...

وقد نستطرد في الشكوى فنقول إن من هؤلاء من يرفع خسيسته بالطعن في الأئمة الكبار، ومن يواري سوأته باللجاجة في تكبير أحكام محدودة أو تجسيم خلاف تافه... ولأذكر صريحا توضيحا ما أخافه: منذ أيام وقف بين الإسلاميين في الجزائر من يصيح بأعلى صوته: إن المرأة في الإسلام خلقت لكي تلد الرجال! لا عمل لها إلا هذا.. وهذه الصيحة تنطلق والغزو الثقافي الديني والشيوعي يعد المرأة بالعلم والكرامة واستكمال الشخصية والمشاركة في إصلاح الأرض وغزو الفضاء! قلت للإسلاميين وأنا كاسف البال: اقفوا هذا الجنون قبل أن تدمر الجزائر وتستولي عليها فرنسا مرة أخرى..

هذا المتحدث المتاجر باسم الإسلام لا يعرف إلا حديثا مكذوبا أن المرأة لا ترى رجلا ولا يراها رجل وأنها خلقت لتفرغ للحمل وحسب! وهناك متحدث إسلامي آخر يرى أن خروج الرسول في "بدر" يدل على جواز أن تكون الحرب في الإسلام هجومية! بل يدل على أن الإسلام قام بالسيف! بمثل هذا الفهم والسلوك لا يقدرون على التقاط أنفاسهم من وطأة الهجوم عليهم! لا يصنعون سنانا ولا يقدمون برهانا... ولا أمضي في هذه الشكاة فالأمر يطول..

وهناك أحاديث ترتبط بمناسباتها، وما تفهم إلا في الجو الذي قيلت فيه، وفي حياتنا العامة قد يفكر امرؤ في الزواج، ويؤجل البت لظروف عارضة، وقد ينوي بناء بيت ثم يؤخر البناء لفترة ناشبة، ومنطقة الاستقرار غير منطقة القلق. وقد نظرت إلى التأديب من بناء القصور من خلال هذه الملابسات، ولو أخذنا الأمر على عمومه ما بنيت قرية ولا ثابت مدينة، وأمامي صفحة من كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول تتضمن الأحاديث التي وردت في بناء المساكن، هل يستطيع الوقوف عندها والتشبث بظواهرها أحد؟

إنني أنظر إلى حرمة استعمال الجرس فأجد أن ذلك بدأ حماية لشعيرة الأذان، وبعدا عن سبيل النصرانية. فإذا استقر الأذان وسمعت مآذنه فلا حرج من سماع الأجراس عند

من العوالم السكك الحديدية، وعند الاستفادة من دخول البيوت، ومع الساعات الموقظة من النوم ومع أجهزة الهاتف ... إلخ

إنني قد أجتهد وأخطئ، بيد أني أسرع الناس توبة من خطأ أقع فيه، وأتمنى للإخوة أهل الحديث أن يتسلل إلى صدورهم شعاع من السنة التي ينتسبون إليها فتخف ضغائنهم على جمهور المسلمين، ويقللوا من التماس العيوب للأبرياء ...

إن محمدًا عليه الصلاة والسلام هو أنبل إنسان عرفه المتقدمون والمتأخرون! فلا يسوغ أن ينتمي إليه هواة الشتم والاستعلاء على أنقاض الغير، أما يخضع على أرواحهم رشح من نداه وحياته يطيب به أقوالهم وأفعالهم؟ لله الأمر من قبل ومن بعد.

محمد الغزالي